

الحاجات الى فلسفة

بم غالب هلسا

لا يعني مطلقا ان علينا ان نعملها ونبدأ من جديد ، بل ان هذا يعني ان علينا ان نبذل جهودا اشد اخلاصا واوسع مدى لضبطها . وهذه العلوم جميعا تفترض عددا من الصفات الثابتة في الانسان والتسي تسعى السى استكشافها .

ان هذا يعني ايضا ان قوانين جميع المجتمعات هي قوانيننا في بعض جوانبها . هناك بعض الاعتراضات المعروفة على هذا الراي الذي نعتقد ان الرد عليه يزيد هذه المشكلة وضوحا ، مستبعدين النظريات العرفية لاننا نرى انها لا تستاهل حتى الرد .

اولا - ان القانون الانساني في كل مجتمع يعبر عن مفهوم الطبقة السائدة ، وقد اوجدته تلك الطبقة ليخدم مصالحها ولذا فلا يمكن ان يكون قانوننا موضوعيا .

ويعتبر فرويد مثالا كلاسيكيا على ذلك ، اذ يعتقد ان الانسان يدخل العالم حاملا معه غرائز تبحث عن الاشباع ، وخبر المجتمعات واكثرها صحة وحيوية هو ذلك الذي يسمح باقصى حد من تبادل الغرائز وازالة كل القيود عنها كغريزة الجنس والعدوان الخ ...

ان هذه النظرية هي نفس نظرية الاقتصاد الحر مطبقة في مجال علم النفس ، فالبورجوازية كانت تعتقد ان المجتمع المثالي هو ذلك الذي يمنح الحد الاقصى لحرية مرور التجارة وحرية العمل وحرية التبادل .

وقد رأى فرويد ان تقييد حرية التعبير عن الغرائز سيؤدي السى خلق العقدة النفسية ، كما ان البورجوازية كانت تعتقد ان القيود على حرية التبادل ستؤدي الى الفقر والاستعباد .

ان هذا الاعتراض موجه الى الجانب السلبي في نظرية فرويد وفي الاقتصاد الحر ، اذ ان ذلك لا يمنع كون فرويد قد قدم نتائج ايجابية في علم النفس كمفهوم اللاوعي، والتداعي والتحليل النفسي الخ .

كما ان هجومنا على الاقتصاد الحر موجه الى تأكيده على عامل الربح والمصاربة اللذين يؤديان الى الحرب والاستعمار لا الى نتائجه الايجابية ، الاكتشافات العلمية (البخار والكهرباء والذرة) : تأكيده على الحرية الانسانية ، والديموقراطية الخ ... لاننا ما نزال نستفيد من نتائج فرويد الايجابية كما نستفيد من منجزات الاقتصاد الحر .

ان هذا الاعتراض ليس الا اعتراضا ناتجا عن عدم فهم الاسلوب الذي يتطور فيه القانون الانساني حتى يصبح اكثر موضوعية . عندما تقدم طبقة ما مفهوما للعالم فهي تركز على حقيقة موضوعية تماما :

انها تود ان تسيطر على الطبيعة من خلال فهم قوانينها وحركتها وان ذلك يستلزم ازالة جميع القيود التي تقف في سبيل هذا الفهم ولكن مصلحتها تمنعها ان تكون موضوعية تماما لانها تصيح مع مضي الزمن هي نفسها عقبة في سبيل الفهم الموضوعي للعالم . انها تكون موضوعية بالنسبة للقوى الرجعية وايجابية ، (وهذا الموقف هو هبتها للحضارة)

ولكنها تصبح سلبية وغير موضوعية بالنسبة للقوى الجديدة الاكثر تقدما منها . ثم تأتي القوى الاكثر تقدما مؤسسة نظرتها على النتائج الايجابية للطبقة التي تقف في سبيل التطور لتضع مفهوما للعالم اكثر موضوعية وشمولا . ومعنى هذا كله ان الافكار لا تتطور فسي خط مستقيم ولكنها تنمو خلال صراع الاضداد .

ثانيا : ان لكل امة من الامم خصائصها المميزة النابعة من تراثها ومن ظروفها الخاصة بها ومن المرحلة الحضارية التي تمر فيها وان ما

انها لمشكلة عويصة تلك التي نواجهها وهي تطرح باستمرار على المستويين الفكري والعملي : اننا بحاجة ملحة وحاسمة السى نظرية فلسفية عربية شاملة تميز عن المرحلة التي نمر بها وتكون فسي الوقت ذاته منهجا يضيء لنا الطريق الذي نسلكه .

واذا حاولنا ان نلقي نظرة على الجهود المبذولة في هذا السبيل نجد انها - في الغالب - تتميز بخصائص خطيرة ينبغي مناقشتها .

ان الخاصية الاولى التي تفجؤنا ان هنالك الحاحا شديدا على استبعاد كل الافكار التي انتجتها تجارب وخبرات الشعوب والمفكرين الاخرين بدعوى انها افكار مستوردة ولدت في بيئة غير بيئتنا وتستوحي قيما ومثالا تختلف عن قيمنا ومثلنا ، وان على ارضنا نفسها ان تلسد افكارنا الخاصة بنا .

ولا يقف دعاة هذا الراي عند هذا الحد والا لهانت المشكلة ، اذ يراقق هذا احساس اخر ان كل ما هو غريب معاد لنا ، علينا ان ندحضه ونبرهن على خطاه . ان مثل هذا الراي يردد في كل حين حتى اصبح النموذج المحبب الذي يلقى حماسا هو ذلك الاديب او المفكر الغريب الصانع في ارضه والذي يرفض اعتناق كل فكرة تتخذ سبيلها الى التطبيق ، وطابع موقفه هو المفاخرة او البطولة القردية التي تلتزم منهجا علميا .

وهكذا تتحطم جميع المذاهب والفلسفات باسلوب ساذج - بسل الحق انه مفرق في السذاجة - وهو تمزيق كل نظرية باسلحة معارضيتها دون ان نضيف اي شيء من عندنا . بعد هذا نأخذ في اصفاء صفات خارقة على كل ما نقوم به وفي التهوين من شأن الاخرين ، معطين منجزاتنا ابعادا غير معقولة .

ان هذا يأخذ طابعا كاريكتوريا عند اساتذة الجامعات الذين ينشرون بحوثهم مرفقة بصور يبدو فيها شديدي الوفاق والاعتداد ، اذ يوردون جميع النظريات ملخصة عن الكتب المدرسية الشائعة - وغالبا ما يكون العرض خاطئا - ثم يرددون اعتراضات اكااديمية قال في جميع المناسبات . ثم ينتهون الى ازمة معرفة تميز الى ان كل شيء على مايرام . ولكن علينا ان ننبذ عن هؤلاء حتى نصل الى شيء من الجد .

المشكلة باختصار ان المقدمات الصحيحة الداعية الى خلق فلسفة خاصة بنا تتوه منا عندما نصر على انكار كل فلسفة .

مناقشة هذه المشكلة : ما الخطا الاساسي - الذي نعتقد -

في هذه النظرة ؟ الخطا الاساسي هو عدم اعتبار القانون الانساني قانونا عاليا وان هنالك بالتالي عددا من الصفات والخصائص الاساسية التي تميز الانسان في جميع العصور والمجتمعات وان الذي يختلف هو تطبيقات هذا القانون . فلبان الماء بدرجة مائة هو قانون علمي معترف به ولكننا عند التطبيق نجد انه يظلي بدرجة خمسين على جبال الهملايا و 110 في البحر الميت مثلا نظرا لاختلاف الضغط .

وعلى نفس الاساس نستطيع ان نقول ان هنالك قوانين للمجتمعات البشرية وللانسان يصعب - لا يستحيل - ضبطها نظرا لصعوبة دراسة الشخصية الانسانية ولعدم تحدها . ان علم الاجتماع والبيولوجي والفزيولوجي ، وعلم النفس والتاريخ والانتروبولوجي وغيرها علوم لها قوانين موضوعية وهي تتسع وتصبح اكثر دقة وتحدا يوما بعد يوم . ان وجود الكثير من الاخطاء او من التطبيقات الخاطئة لها

يصلح لامة ما لا يصلح لآخرى .

ان هذا الاعتراض مرده الى عدم التمييز بين النواحي السلبية واليجابية في تطبيق القانون . ولتوضيح هذه المشكلة نورد موقف لينين من هذه القضية .

عندما طبق ماركس فلسفته المادية الديالكتيكية على ظروف عصره استنتج ان الثورة الاشتراكية سنقوم في اوروبا كلها دفعة واحدة . ولكن ما نبأ به ماركس لم يتحقق نظرا لنشوء ظروف لم تكن قد وجدت في عصره . فهل اكتفى لينين برفض رأي ماركس لان احسد تطبيقه لسم يعد صحيحا ؟

لقد راي لينين ان رأي ماركس ما زال صحيحا ولكن تطبيقه بالاسلوب الذي افترضه ماركس غير صحيح . اي انسه من المنطقي والاحتموي ان تسيطر الطبقة المنتجة على ادوات الانتاج ولكنه رفض الجانب السلبي وهو هنا الجانب الموقوت والمرهسون بظروف الدول الرأسمالية المتقدمة وطبق جوانبه الايجابية على روسيا .

بالطبع لسنأ هنا في مجال الحكم على الاخطاء التي حدثت وعلى بعض التطورات المؤسفة التي تلت ، فهذا حديث يطول وقد اعترف به اصحابه ، ولكن المسألة المهمة هنا هي النظرة الصحيحة للقانون الاجتماعي . ان معنى الخلق والابداع تحدد هنا بفهم الجانب الايجابي من فلسفة ماركس والابادة منه ورفض الجانب السلبي والموقوت .

ولناخذ مثالا اخر هو مثال الدول التي تحرت حديثا من الاستعمار واخذت تبني الاشتراكية باسلوبها الخاص . لقد تبنت الجانب الايجابي من موقف البورجوازية وانطلقت منه لبناء نظامها ورفضت الجانب السلبي . ان البورجوازية في البلدان التي تخضع للسيطرة الاستعمارية تكافح ضد الاستعمار لانه يمنحها من النمو ويفرق السوق ببضائه . ولكنها تعادي الحركة الشعبية لانها تهددها وكثيرا ما يبلغ خوفها من الشعب ان تتحالف مع الاستعمار والاقطاع راضية بنصيب تافه من الارباح يقدم على شكل رشوة لشرائها . لقد تبنت الدول التي تبني الاشتراكية موقف البورجوازية في كفاحها ضد الاستعمار وفي سبيل النمو الذاتي ، واستبدلت النمو الاقتصادي لصالح البورجوازية بفكرة النمو الاقتصادي لصالح الشعب - ممثلا في القطاع العام - فزاللت التعارض بينها وبين الحركة الشعبية ، كما استبدلت فكرة التحالف مع الاستعمار الى فكرة التعاون مع الدول المستعمرة على اساس الوقوف معها على قدم المساواة . اما الاقطاع فقد ازيل كقوة اقتصادية وبالتالي كقوة سياسية دون هواده - وان اعتبر البعض ان بعض مثالياته ما تزال صالحة . وهذا ، في رأيي ، امر مؤسف للغاية .

ثالثا : ان علم النفس وعلم الاجتماع اثبتا بشكل قاطع خطأ نظرية المادية الميكانيكية التي كانت ترى ان الانسان هو مجرد توليفة من عديد من الفرائز والقوى النفسية المنفصلة . وان النظرة العلمية الصحيحة للانسان ترى فيه وحدة متكاملة في مواجهته للعالم وفي سلوكه . ولذا فاعتبار ان هنالك خصائص ثابتة في الانسان هو امر خاطيء .

والرد على هذا الاعتراض ان خطأ المادية الميكانيكية انها اعتبرت الانسان مكونا من اجزاء منفصلة متجاورة تتبع من حاجاته الجسدية . اما الخصائص الخالدة والثابتة في الانسان التي نراها فهي تتبع من موقفه في العالم ، وسنحاول هنا ان نورد باقتضاب شديد تحليل اريك فروم لهذا الموقف في كتابيه « الانسان لذاته » و « المجتمع السليم » . « في المستوى الحيواني من الحياة تنحصر المطالب في احتياجات الحيوان الفيزيولوجية : الجوع والعطش والجنس . وقد زودته الطبيعة بفرائز وانماط سلوكية تساعد في سد احتياجاته والحفاظ على حياته . وهو في هذا جزء من الطبيعة يخضع لقوانينها ولا يستطيع تخطيتها . ان الوجود الحيواني هو التلاؤم المثالي مع الطبيعة .

وفي نقطة معينة من تاريخ التطور حدث امر فريد وهام يمكننا ان نقارنه بنشوء المادة في الكون او بظهور الحياة للمرة الاولى : لقد اصبح الكائن الحي يواجه حربة مرعبة . لم تعد الفرائز هي العامل

الاساسي في تحديد افعاله ، كما ان السلوك الفريزي السذي يؤدي الى التلاؤم مع الطبيعة قد فقد طابعه الجبري وفقد حتميته . تلك هي اللحظة التي بدأت الحياة تعي نفسها - ولد الانسان .

لقد كشف له هذا الموقف الجديد عن معنى وجوده . انه جزء من الطبيعة يخضع لقوانينها ، ولكنه غريب عنها ، مبعده وضائع ، ونهايته هي الموت . ان وعيه يدرك هذه الحقيقة ولكن جسده يرفضها .

عبرت التوراة عن هذه اللحظة بخروج الانسان من الجنة . لقد اكل الانسان من ثمار شجرة معرفة الخير والشر فكان جزاؤه العذاب والكند والموت . لقد نظر اليه الرب وقال لنفسه « ها هو الانسان اصبح كواحد منا يعرف الخير والشر » وما عليه الا ان يأكل من ثمار شجرة الحياة حتى يصبح خالدا كالاله ذاته . ان الحياة الابدية هي حلم الانسان الخالد اذ بها يخرج نهائيا من الطبيعة ولا يخضع لقوانينها التي تؤدي به الى الموت .

ان هذا الموقف قد خلق رغبتي متعارضتين في داخل النفس الانسانية كلا منهما تهدف الى حل هذا الموقف . الرغبة الاولى هي العودة الى الطبيعة كجزء منها وهو ما عبرت عنه التوراة بالعودة الى جنة عدن . انه بهذا يقضي على الوعي الطاريء الذي خلق هذا الموقف المرعب . ولكن تحقيق ذلك كليا معناه الجنون ، وقد يأخذ اشكالا اقل حدة كالرغبة في العودة الى الرحم ، خلق مجتمع يفقد فيسه الانسان وعية بذاته وبفرديته الخ . . .

الرغبة الثانية هي الانفصال نهائيا عن الطبيعة من خلال انسنة الطبيعة واخضاعها والسيطرة على قوانينها . فما هي الاحتياجات والاشواق التي تنتج عن الموقف الانساني وعن الرغبة الانسانية في النمو والتفوق ؟

1 - الاتحاد مع الاخرين وذلك يتم بثلاث وسائل : الماسوكية او الرغبة العنيفة في الخضوع لشخص اقوى وبهذا يقضي على الاحساس بالوحدة والفردية . والوسيلة الثانية هي السادية وهي ملء الفراغ الداخلي والاحساس بالوحدة من خلال السيطرة على الاخرين سيطرة نامة مطلقة . ولكن خطأ هاتين الوسيلتين انهما لا تعطين ابدا احساسا حقيقيا بالاتحاد مع الاخرين . الوسيلة الثالثة هي الحب والذي يرفقه فروم انه اتحاد مع انسان اخر او مع العالم بشكل يسدع للمحب ان يحس بذاتيته وتفرده في نفس الوقت الذي يتحد فيه مع الاخر . وهو بهذا يحرر جميع طاقاته الخلاقة .

2 - رغبة الانسان الملحة في تخطي وضعه ، وهذا يتم باسلوبين : الرغبة في التدمير ، فعندما ادمر الواقع اكون قد تخطيته . والاسلوب الثاني من خلال الابداع والخلق .

3 - الانتماء وهو تعبير عن حاجة الانسان للحب (الحب غير المشروط الذي تمنحه الام لاولادها) وحاجته لان ينسال قبولاً لسدى الاخرين (الاخرون هنا هم صورة للاب الذي تتمثل سلطته في قبول الابن الذي يحقق المفهوم الابوي للنجاح واستبعاد الابن الفاشل) .

4 - الشعور بهويته - وقد بينا ان احساس الانسان بانفصاله عن الطبيعة هي نقطة التحول في تاريخ تطوره الطويل من المرحلة الحيوانية الى المرحلة الانسانية .

5 - الحاجة الانسانية لتكوين صورة عن العالم من خلال فهم العالم بواسطة العقل .

اننا نستطيع استكشاف مثل هذه الاشواق والرغبات الانسانية من خلال استرجاع المبادئ الاساسية للديانات العظمى والفلسفات والادب العظيم منذ عهد الميتولوجي حتى زمننا الحالي . فليسوا اخذنا احد الظاهر التي اشتركت فيها جميع الديانات كمثل - اذ ان التفصيل مستحيل في هذا المجال - وهو تحطيم الاوثان - احراق موسى للمجمل الذهبي ، محاربة المسيحية لطقوس النظم ، تحطيم الاسلام للاوثان - لوجدناها جميعا تصدر عن منطق واحد : ان هذه الاوثان من صنع ايدي البشر فهم قد تحتوها بايديهم واضفوا عليها قوى لا توجد فيها اسم عبودها . ولان ما تصنعه يد الانسان يجب ان تخضع له ، ولان القوى التي

يطلقها ويفجرها يجب ان تخدeme لا ان تفلح فيجب تحطيم الاوتان . لقد عبر المسيح عن ذلك بقوله ان السبب خلق للانسان ليستريح فيه لا الانسان للسبب .

كما ان الديانة العبرية ترى ان الله قد خلق الانسان على صورته ومثاله ، وانه عندما اكل الانسان من شجرة معرفة الخير والشر قال الرب ها هو الانسان اصبح كواحد منا .

وكذلك فان جوهر الديانة المسيحية ان الانسان ارتفع الى مرتبة الالهية من خلال المعاناة والحب والتضحية .

وكذلك فان جوهر الفلسفة اليونانية هو محاولة اخضاع جميع مظاهر الطبيعة والمجتمع للعقل وخير مثال على ذلك جمهورية افلاطون الذي ينتقل فيه من محاولة تفسير العالم اللى خلق عالم يخضع لمنطق الفلسفة .

ونستطيع تلخيص ما تقدم بان رغبة الانسان في الانفصال عن الطبيعة ثم الانتماء اليها من خلال انستتها ليست امورا يفرضها التطور والنوايا الطيبة فحسب ولكنها البديل الوحيد عن الجنون .
دلالة هذه المشكلة :

ان المشكلة كما اوردها هي ان هنالك محاولة لايجاد فلسفة خاصة بنا ، وهذه المحاولة نابعة عن حاجة امتنا العربية في هذه المرحلة التي نمر بها لتفسر وتدل على طريق المستقبل . ولكن هذه المحاولة مجدبة لانها تتنكر للفكر الانساني لان فيه نواقص ولانه نشأ في بيئة غير بيئتنا ، وهي تبالغ في اهمية ما نقوم به من اعمال .

وابدينا رأينا في ان جذب هذه المحاولات ناتج ايضا عن عدم التمييز بين ما هو ايجابي وما هو سلبي في التراث الانساني . وان الموقف الصحيح الذي يؤدي الى خلق فلسفة خصبة عندنا يجب ان يبدأ من اعتبار جميع الجوانب الايجابية في جميع الفلسفات صحيحة بالنسبة لنا ومفيدة .

فما هي دلالة هذه المشكلة ؟ انها تعبير عن ياس المثقفين من انفسهم ومن ثقافتهم - ومن المهم ان نشير هنا الى ان هذه الظاهرة ذات طابع عالمي وهذا ما سنشرحه بعد قليل .

وقبل ان نستطرد اود ان احدد هنا مسأ اعنيه بتصحيح المثقفين : المثقف هو ذلك الانسان الذي له صلة مباشرة بالفكر والتي يحاول من خلالها ان يغير العالم . وهو يتخذ ثقته بنفسه من وهم لازمه منذ عهد الساحر القديم حتى المفكر المعاصر : انه ما دام باستطاعته ان يعيد خلق العالم على الورق فان بإمكانه ان يغيره من خلال تغيير صورته على الورق ايضا .

ان المثقف هو وارث تقاليد الساحر القديم الذي كان يرسم صورة العدو على الورق ومن خلال سيطرته على الصورة كان يعتقد انه يسيطر على ذلك الانسان .

واذا حاولنا ان نزيد هذه المسألة وضوحا وتحديدا فنقول ان المثقف هو ذلك الذي يحاول ان يسيطر على العالم بواسطة العقل لا المهارة . العقل يرى الظواهر فيحاول ان ينعذ الى جوهرها - القوانين التي تحركها ، العلاقات التي تقوم بينها ، ارتباطها كاجزاء بنظام كلي - ومن خلال هذا يستطيع ان يكون صورة عن العالم ، وموقفه بازائه . بينما تعرف المهارة بانها القدرة على تحويل المظاهر الى منافع نفيد منها . والان نعود لموضوعنا سنسال كيف حدث هذا الاحساس بالهزيمة والياس عند المثقف العربي . . . ؟ ولماذا حدث ؟

يعود ذلك لاسباب يطول شرحها وسنقتصر هنا على الموضوع الرئيسي موردين اياه باقتضاب شديد .

اولا : ان ذلك امتداد لازمة عالية انتصر فيها التكنيك على الفكر ، المهارة على الفلسفة ، والسطحية والستيمتالية على الثقافة . اصبحت الثقافة تعتبر سلعة والمفكر صار ينظر اليه كمنتج للسلع . لقد اصبح المسرح الجاد في مواجهة الافلام الخفيفة ، الكتاب العميق في مواجهة التلفزيون ، الفلسفة في مواجهة السياقات العارية .

ان المثقف يدخل معركة خاسرة منذ البداية . فهو يواجه جمهورا متعبا قلما يبحث عن العزاء والنسيان لا الفهم الجاد الثاني ، جمهورا يبحث عن حلم اليقظة والمتعة السريعة لا المواجهة الحقيقية لنفسه وللعالم . كما ان التطور التكنيكي قد جعل بالامكان انتاج المتعة بالجملمة وبشمن في متناول الجميع يستطيع المستهلك ان يجدها وهو مجهد ونصف نام ومتبلد . واصبح الحديث يدور عن انتهاء عهد المسرح الذي لا يستطيع ان يستمر دون اعانة ، وانتهاء عهد الكتاب ، وانه بالامكان حقن الثقافة او الايحاء بها من خلال التنويم المغنطيسي . اما الفكر فقد اصبح ضيفا ثقيلنا غير مرغوب فيه .

انه اخذ يتحول الى سلعة لا من وجهة نظر الاخرين وحسب بل من وجهة نظره ايضا . اصبح على المثقف ان يعدل موقفه ويتلادم . ان عليه ان يجعل الثقافة الجادة ممتعة وناجحة من ناحية تكنيكية (وهذا امر مختلف تماما عن تبسيط الثقافة فجعلها ممتعة يعني الفاعها بينما تبسيطها هو جهد مخلص لتعريف الشعب بجوهرها وربطها بتجاربه اليومية) .

ان بعض الامثلة التي ساذكرها لم تعد تشير السخرية : كاتب يملا نصف صفحة بموضوع جاد ، ثم يملا النصف الاخر بصورة لشادية مع تعليق انه شاهدها في حفلتها الاخيرة وقد سمت وهذا امر صار . ثم يضيف ان شادية يجب ان تكون حاسمة في معالجة هذه المشكلة . واخر يتحدث عن اخر التطورات التي حدثت في الفكر الماركسي فيضع لها عنوان « احمر الشفاه وموديلات باريس والفكر الاشتراكي » . وموضوع اخر « بريجيت باردو وازمة الانسان المعاصر » . . . ومئات من الامثال المشابهة التي لا يتسع لها المجال وكلها توحى بمنظر عجوز تعري جسدها وفي ظننا انها ترضي الزبائن . قد ادى هذا الى امر اشد خطورة وهو ان المثقف الجاد لم يعد مقتنعا بما يكتب . ان ما يكتبه هو اكل عيش اما ما يؤمن به ويقوله لخلصائه فهو امر اخر تماما . وهذا كله ادى ايضا الى زوال الاحساس

مؤلفات سارتر

* دروب الحرية

رأعة سارتر باجزائها الثلاثة

١ - سن الرشد ٥٥ ق.ل

٢ - وقف التنفيذ ٦٥٠ ق.ل

٣ - الحزن العميق ٥٥٠ ق.ل

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

* الغثيان

٣٥٠ ق.ل

اعمق روايات سارتر
ترجمة الدكتور سهيل ادريس

* محاورات في السياسة

٢٠٠

بالاشتراك مع روسيه وروزنتال
ترجمة جورج طرابيشي

* عاصفة على السكر (ط ٢)

٣٠٠

ترجمة عائدة مطرجي ادريس

* عارنا في الجزائر

١٠٠

ترجمة عائدة وسهيل ادريس

بان كلماته تستطيع ان تغير العالم .

لم يعد يحاول بناء العالم وفهم قوانينه بل اصبح يسعى لفهم قوانين التجارة والسوق . ان عمارة ندر دخلا مضمونا اصبحت اقصى مناه ، واللمعان وسط الاضواء قبلته .

انها ازمة عالمية كما قلت ولكنها امتدت الينا .

ثانيا : ان مثل هذه الازمة قد اصبحت امرا مألوفيا في اوربا وقد ارتفع الاحتجاج عليها من كل النواحي : من اليسار والوسط واليمين . لقد اصبح ادب اليوت وفوكنر وجويس والادب الاشتراكي والوجودي والادب الياس ، والانتحار وادمان الخمر والجنون - حتى وصل الامر ببعض الدول الاشتراكية ان اغلقت ثقافتها دون كل غريب وافد سوى ما ندر كاحتجاج على الابتذال - بعض ردود فعلها .

اما بالنسبة لوطننا العربي فالمسألة مختلفة لانها حديثة . ان الكثيرين ممن يكتبون الان كانوا يكتبون فتنحرك كلماتهم العالم من حولهم ، كانت افكارهم تتحول مباشرة الى فعل وحرارة وموقف ومريدن . كانت احاسيسهم عندما تمس الورق تتحول الى تاريخ تتبناها الجماهير ويصبح لها شهداء وتقال من اجلها حكومات . كانت ثقافة المثقف هي حياته وحياته هي قضيته ، وكانت قضيته هي الاخرين .

ثم حدثت تطورات جعلته يقف مشدوها لا يدري ماذا يحدث ولا كيف يواجهه . لقد تحقق الكثير مما كان يطالب به دون ان يكون له اي دور فيه بل بدا كأنه موجه ضده . حدث ذلك بأسلوب لم يكن ينتظره ولا كان في حسبانته ، فكان رد فعله عنيقا وعشوائيا . ان الامور تسير كما يرغب ولكن دون ان يكون له اي دور فيما يحدث .

لقد وجد انه يدفع الى دور ثانوي ، هو الذي كان يعيش بنشوة قوته السحرية ويحرك الاحداث ويمسك دفة التاريخ . بسلا اصبح يعامل كقاصر مشاكس محتاج الى الرعاية وبعض التذليل احيانا والسبب بعض الشدة والحزم احيانا اخرى .

وشينا فشيئا اخذ هذا المثقف يدرك ان عليه ان يتلادم مع الظروف الجديدة ليجد مجالا للعيش وحسب بل حتى لا يندفع الى الجنون . فكيف كان تلاؤمه ؟

مصدر قوة المثقف واساس اعتداده انه بواسطة العقل يستطيع ان يدرك القوانين التي تغير العالم . وكان التكنيك بالنسبة له وسيلة لا غاية . اما تكنيك الحذقة والاثارة فكان يبعث فيه الاشمزاز ويعبر عن ذلك بقرفه من صحافة الجنس والاثارة والسيقان العارية .

كانت اول خطوة في سبيل التلاؤم هي انكار دور العقل كوسيلة للسيطرة على العالم ، واخذ يعبر عن مفهومات مفرقة في فرايتها وسذاجتها . كان يقول ان المثقف عاجزون عن وضع فلسفة علمية للمجتمع ، وان الفلسفة الحقيقية هي احساس الشعب الفريزي ، او هي الحدس والالهام الذي يحتقر الدراسة الموضوعية والارقام ، او حتى انه لا حاجة لوضع فلسفة لانها موجودة بالفعل وقد عبر عنها ابسن المقفع في حديثه مع بعض الاعراب عندما قال ان العرب اممة وسط الخ . ثم اخذ يدعي ان واجب المثقف ان يلهث وراء جماهير الشعب حتى يتعلم منها . ولن يجدي تساؤلنا : متى حدث شيء مثل هذا . . . متى كان الفلاح المرهق الذي يمتص البحث عن لقمة العيش كل طاقاته قادرا على وضع فلسفة ومنهج فكري ؟ ومتى كان التعلم من الشعب ان يقف الشعب ليلقي محاضرات في فلسفة التاريخ وفي علم الاجتماع ؟ ولكن المناقشة والتساؤل لا يفيد شيئا في هذا المجال .

غير ان هذا لا يكفي ، فهناك ماضي المثقف الذي لا مهرب منه . ولكن هذه المسألة حلت ايضا . لقد اخذ يواجه الاهانات لنفسه وتاريخه ويعلن ندمه عليها . لقد اعتبر وقوفه ضد طغيان الاقطاع وضد الاستعمار وفي سبيل الحرية ، محاولته لوضع منهج للتفكير الموضوعي، استشهاد اخوانه في كفاحهم ضد الاحتلال وطغيان الرجعية . . . اعتبر ذلك كله خطايا عليه ان يستغفر عنها . اصبح يسميها ادعاء بعض المثقفين المنعزلين عن الشعب وفروهم . ثم اخذ يعيد كتابة التاريخ بشكل ينفي فيه دوره تماما ، او ان كان لا بد من ذكره فيعتبر دورا

مخزيا . لقد اكتشف احدهم ان الثائر الحقيقي في العصور السابقة هو يوسف وهبي بالذات . واخذ اخرون يهزأون من الحقيقة ومن كل تفكير موضوعي عندما سخروا من محاولات انتاج اوربا عربية وقالوا ان ام كلثوم هي في الحقيقة قمة فن الاوبرا .

ان ما تقدم لا يعني بآية حال ان المثقفين كانوا متزهين عن كل الاخطاء وان ليس في ماضيهم ما يشين ، ولكن ما اود ان اؤكد هنا هو افتقاد التقييم الموضوعي لدورهم ومسح كل ما كان يجب ان يكون مصدر فخر واعتزاز وثقة .

ولكن على الرغم من هذا فما تزال هناك افكار وفلسفات في العالم تنمو وتزدهر وما زال هنالك من يدافع عنها . . . فما العمل ؟ الحل الذي اهتدى اليه المثقفون ان تلك الفلسفات تنقد بمضمونها البعض ، بل وتنقد ذاتها وتكتشف اخطائها ، وهي ايضا لم تنبع من واقعنا ولم تنبثق من ارضنا الى اخر ما هنالك ولذا فهي لا قيمة لها ولا جدوى منها . ان خير مثال لذلك هو ما قاله الاستاذ مطاع الصفدي في مقدمة مسرحيته (الاكلون لحومهم) . . . اذ يقول :

« ان العالم في ضجة هائلة ، ولكن الوحشة والصمت في جميع القلوب ، قلوب الناس الذين يسكنون عالم الناس ، عالم دارون الانكليزي محطم السر الالهي في الانسان ، عالم فرويد اليهودي ، مفسر العقيدة بحقد الجنس ، البطولة بالكبت ، الفنانين القمطاء والابياء ، وكل قواد الانسانية . . . ان هم الا تضخم الاحساس الجنسي . وعالم ماركس اليهودي معلم الحقد ، مييد القيسم ، البشر بفلسفة الاسفل ضد الاعلى » .

ويرى الاستاذ مطاع انه مقدر على العربي ان يحلل اشكالات الحضارة المصطنعة لانه هو - اي العربي - سيصنع حضارة جديدة .

وهذا بالطبع لا يمنع كون الاستاذ مطاع يعبر عن فلسفة ترتكز على فرويد اليهودي ، مفسر العقيدة بحقد الجنس ، ويعلم اكبر اقطابها عن كون فلسفته امتدادا عصريا لفلسفة ماركس اليهودي معلم الحقد ومييد القيم . كما ان فكرة الاحتجاج على المجتمع الحديث ليست مقصورة على مطاع حتى ان كاتبنا مثل كولن ولسن يقول انها جوهر معظم ما يكتب في المجتمع الغربي . وكذلك فكرة الشعب المختار الذي عليه ان يتخذ الانسانية تمتد منذ عهد موسى حتى هتلر وترومان .

وان التاريخ ليثبت ان عقوبات الامم تفتحت وانتمت - ومن ضمنها العقوبة العربية - عندما فتحت نوافذها لجميع تيارات الفكر وتفاعلت معها ، كما يثبت ان من يحتقر شعبا اخر لا يمكن ان يأخذ شعبه ماخذ الجسد .

نلخص ما تقدم ان المثقف قد عمد - للوصول الى التلاؤم - الى تحطيم قوة العقل في ذاته وفي تاريخه وفي العالم . ولكن هل انتهت ازمته بعد ان تحطم كل شيء وتحول العالم الى رماد ؟ ان امرا شديدا الخطورة قد حدث . ان هذا الخواء قد خلق في نفس المثقف كرها شديدا لنفسه واحساسا شديدا بالفضة . ومن خدع دينامية النفس الانسانية ان كره الذات يأخذ تعبيره الواقعي بالانانية المفرطة والنهم الشديد . ان الذات الانسانية تحاول ان تحمي الانسان من خطر كره الانسان لنفسه الذي قد يتحول الى دمار ذاتي - الانتحار - بالنهم الشديد ، محاولة الاستيلاء على الاشياء وبانبعات رغبة التملك بقوة عنيفة ، بحب الظهور - الذي يعني ان الانسان يحاول معادلة احتقاره لذاته باحترام الاخرين له - . وهذه الظاهرة النفسية شديدة الشبوع نلاحظها مثلا في الانسان الشديد الثقة بنفسه والذي يخفي ضعفا داخليا ، او في الانسان الذي يعاني رعبا مستترا من مواجهة العالم فينظأه بالقوة والاعتداد . والمثال الذي يحضرني هنا هو المثال الذي اورده هيمنجوي في احدى رواياته حيث ترى كوهن الذي يعاني عقدة الاضطهاد يتعلم الملاكمة لا ليمارسها ولكن لان الانسان - على حد زعمه - مضطر لان يدافع عن نفسه ضد اهانات قد توجه له .

الا انه يستحيل على هذا العظام الانساني ان يكسبون منتجا وان يحسن خلق اساندة فن التكنيك الصحفي . ولهكذا السبب بالذات

طغ جلد حياتنا الثقافية ببثور متفيحة تفوح منها رائحة العفونة والنتن . لقد كان هنالك مخترفو فن الاثارة والتهريج ، فن بيع الاحلام للمراهقين المتعبين ، هؤلاء السادة الذي يقدمون على معالجة قضايا الفكر بحس المفاسر ودهاء التاجر المصارع ، اولئك الذين لسم تمس نفوسهم قط فرحة الفكر الشريف ، ولما يعانون التمزق قط . لقد عادوا ليجلسوا على قمة الحياة الثقافية ليغنموا الموظف الصغير بان عدم كونه صاحب ملايين هو نتيجة حظه العائر ، ونقص مهارته . اذ ان اختراع سريسر يجلب النوم السريع ، او فتح دكان لبيع الفول ، او وكالة لتعزية الارامل ، او دواء يعيد الشباب سيأتي بعشرات الملايين من الجنيهات او الليرات في ايام معدودة . وليس هنالك اية غرابة في هذا فهذا ما حدث لروكفلر ومورجان وفورد واخرين لا حصر لهم من هذا الصنف العصامي . بل ان احدهم اقترح تحويل خطب الجمعة في المساجد الى دروس تلقن الشعب كيف يصبح كل من افراده مليونيرا وذلك برواية قصص حياة الاترياء وكيف ارتفعوا من الهاوية حتى اصبحوا يجلسون على قمة جبل من المال . وليس هذا وحسب بل ان القبيحة ستصبح في جمال صوفيا لورين اذا مارست بعض التمرينات الرياضية ودلكت وجهها من فوق لتحت او بالعكس .

اما المناظر المؤذية في رأيهم فهي تناول الويسكي بعد الشوربة ، ان يمشي طفل واسمه مكتوب على صدره ، او ان تتشاب في حضرة سيدات المجتمع الراقي . والسيدة التي تود ان تسعد زوجها عليها ان تعتبره في كل لحظة على استمداد لان يحب امرأة اخرى ، وحتى تمنعه من ذلك عليها ان تبسّم له عندما يعود للبيت ، ان تذكره بايام الخطوبة، ان لا تساله ماذا تنفدى اليوم بعد ان يكمل افكاره لانه يكون عند ذاك متخما ولا يستطيع ان يفكر بالاكل .

حقا ، ان الثقافة لفن يحتاج الى تفرغ وحيياة كاملة ، فالمثقف لا يستطيع ان يدعى اجادتها .

الحاجة الى فلسفة :

اود ان يكون هدفي هنا واضحا ، فلم اقصد الى جعل المثقفين فئة مرفهة ممتازة فوق المجتمع ، ولا الى الخضوع لكل ما يقولون ، ولكن ما اريده بالضبط هو افساح المجال للمثقف حتى يؤدي دوره كاملا . فما هو هذا الدور ؟

ان الحديث عن دور المثقف يعني الحديث عن دور الثقافة في المجتمع التي تجد اروع واكمل تعبير عنها في الفلسفة . ولذا فسناحاول ان نحدد هنا دور الفلسفة في المجتمع .

لكل انسان مفهوم او تصور معين عن العالم . ومن خلال هذا المفهوم او التصور لا يتحدد موقفه من المجتمع ومدى انتاجيته وايجابيته وحسب وانما يتحدد ايضا وضعه في عالم العقلاء ، بل وقدرته على ان يستمر في العيش . وهذا التصور يتكون نتيجة خبرات اجتماعية وفردية تأخذ شكل احكام على العالم .

ولو اخذنا الانسان العربي الذي ينتقل من مرحلة الاقطاع الى القرن العشرين وحاولنا ان نحدد تصوره عن الحياة من امثاله الشعبية مثلا لوجدنا انه ينفر من السلطة نفورا شديدا ويعتبرها شرا لا يد منه (المثل الاردني : لا تتقنى سيس ولا تنتطح حاكم . ومعناه احذر ان تقف خلف البغل الشرس او ان تواجه الحاكم وجها لوجه) ، وان كل قريب عن العائلة هو عدو محتمل (خير لا تعمل شر ما يجيك . وانا واخي على ابن عمي وانا وابن عمي على القريب) . كما يعتقد ان الانسان مسير لا مخير ، وان الناس مقامات الخ ...

من الواضح ان انسانا كهذا يجب ان يتحول الى انسان متعاون مع كل سلطة رشيدة تسعى لخير ، ينظر الى ابناء وطنه كما ينظر لآخيه ولابن عمه ، له ثقة بان الانسان يجب ان يكون سيد مصيره وسيد الحياة . فكيف يتم ذلك ؟

ان علينا ان نغير تصوره عن العالم حتى يتغير موقفه . وليس مجالا بحثنا هنا كيف يتم ذلك وما هي السبل التي تجسّل الانسان العادي يتقبل فلسفة متقدمه ، ولكن يكفي ان نقول انه لا يمكن تحقيق اي تقدم

حقيقي دون تغير صورة العالم عند الانسان العادي لان هذا هو السبيل الوحيد لتغيير موقفه .

من هذا نستطيع ان نستنتج دور المثقف واهميته ، وان مفسر . الاهتمام به ليس بسبب كونه انسانا ذا حقوق وحسب بل لان دوره - صانع الفلسفة من خلال الخبرات الاجتماعية - لا غنى عنه ولا يمكن التحدث بجدية عن تطوير المجتمع بشكل سريع وحاكم دون هذا الدور . ويحضرن في هذا المجال مثال من الاتحاد السوفياتي له دلالة عميقة يجب ان نفيد منها الى اقصى حد ، ففي عام 1950 قسّم جدانوف تقريرا ناقش فيه ترشيح الكسندروف لنيل جائزة ستالين عن كتابه حول تاريخ الفلسفة . لقد قال جدانوف ان ستالين تدخل شخصيا لمنع الكاتب من نيل الجائزة ، اذ ان الكاتب لم يفعل اكثر من حشد بعض المعاومات دون ان يضيف شيئا من عنده . كما ان الكثير من هذه المعلومات كان خاطئا بشكل مخز ، فالكاتب لم يكن يدري ان شكل الارض بيضاوي .

ثم انتقل الى الحديث عن الجبهة الفلسفية في الاتحاد السوفياتي قال ان ستالين يلاحظ باسى انها لم تقم باية مشاركة حقيقية في ميدان الفلسفة ، وانها تقوم بمعالجة موضوعات لم يعد هنالك من جديد يقال فيها . وان اعضاء هذه الجبهة ينصرفون الى بحوث اكااديمية معروفة ويكثرون الاستشهاد بما يقوله ستالين ثم يكتفون بهذا القدر ، غير محاولين تفسير ما يطرأ على الحياة السوفياتية والمجتمع من تغيرات . ولاحظ جدانوف باسى ان الشخص الوحيد الذي يقدم مشاركة فلسفية لها قيمة هو الرفيق ستالين وحده . انه بإمكاننا ان نضيف باسى ايضا ان الاتحاد السوفياتي عرف الكثير من القيم الرائعة في جميع حقول الثقافة وان الرفيق ستالين وحده قد دفعهم الى مصر مظم مشر للحن .

لقد انتخر مايكوفسكي اعظم شعراء روسيا وهو ما يزال في شرح الشباب ، ووجهت انتقادات غبية ومهينة الى ايزنشتين ، اعظم مخرج في تاريخ السينما ، مما جعله يقصر جميع انتاجه السينمائي على احداث ما قبل الثورة ، كما قام جدانوف والمؤمنون به بهجوم ساحق على اعظم موسيقيي الاتحاد السوفياتي - وقد رد عليه خسانتوريان بعد موت ستالين بسلسلة من المقالات تحت عنوان حطمو الاسس الجرانوفية اما شولوخوف ، اعظم روائي الاتحاد السوفياتي ، فلقد امضى آخر خمسة عشر عاما من حكم ستالين منزويا في قرينته لا يكتب شيئا . اما في مجال الفلسفة فلقد علق على المشائق كل من كان له رأي معارض للاتجاه الرسمي للدولة . ولقد كان على جدانوف ان يدرك ان الايمان بالديالكتيك يتنافى مع تضهاد الفكر المعارض لان كل تطوير للفكر معنى الانتقاض على ما قبله . وقد برهنت الاحداث فيما بعد ان تطوير الفلسفة اقتضى نبش جثة ستالين من قبره والقضاء على كل انصاره . اما الحديث عن الرسم السوفياتي فمعاد ومعروف للجميع .

ان نتائج مثل هذا الاتجاه واضحة وغنية عن كل تعليق ، اذ اصبح معظم الفنون السوفياتية مثال الضحالة والسوء ولا يعود ذلك باية حال لعدم وجود فنانين ومفكرين كبار ، بل اننا نعلم انه كان هنالك خوارق فنية وفلسفية اطلقت بقوة الارهاب .

وماذا كانت النتيجة في غير ميدان الفن والثقافة ؟

اعتقد ان تقارير خروشوف تكفيها عن الاجابة على هذا السؤال . ولكن ما اود ان اؤكده هنا ان النتائج ستكون مرعبة وخطرة ان لم يفسح المجال امام المثقفين لان يقوموا بدورهم بشكل ايجابي وعلى اكمل وجه ممكن .

فما هي الوسائل او الخطوات التي يجب ان تتخذ حتى يقوم المثقف بدوره الايجابي لمصلحة المجتمع ؟

ان نقطة البداية هي ان المثقف انسان ثوري ، اي انه يتكلم عن المستقبل ويعلن احتجاجه الدائم على الحاضر . انه يضع صورة للواقع : القوانين التي تحركه ، اتجاهه ، المعوقات التي تقف في سبيل انطلاقه ... ثم يضع بعد ذلك المنهج لتغييره . ان المثقف الذي يقمر

همه على الإعجاب بما هو كائن يخون رسالته .

والثوري دائما انسان متفائل ، يرى البذور الحية القوية التي تشق طريقها الى النمو فيبتناها وبرعاها ، اما القوى الجبارة التي تقف في طريق التطور فهي ميتة بالنسبة له لانها غير منطقية .

ان هذا يعني ان المثقف لا يمكن ان يكون مفكرا رسميا يقدم المصالح الابية لاي وضع . لقد انتشرت فكرة مؤداها ان خير السبل لمعاملة المثقف هي اغراقه بالعطايا وجعله انسانا منعما ، ومما يشجع على انتشار هذه الفكرة ان الكثير من المثقفين يقبلون بنهم منقطع النظر على المكاسب المادية وهم على استعداد - في سبيل ذلك - ان يتخلوا عن كل شيء . وامثلة كثيرة تسرد عن كتاب مسرح جادين تحولوا الى الاذاعة والتلفزيون يكتبون حلقات بوليسية مسلسل او قصص تهريج بذيئة ، وعن رواد في مجال مختلف البحوث تحولوا الى مضحكين يشكون من عبث زوجاتهم وشقاوة اطفالهم والى الإعجاب بالمثلثة فلانة التي ارتفعت الى مستوى عالي ، وعن نقاد كبار سلخوا الطريق السهل في مدح المريدن ، وعن شعراء كانوا يبشرون بكل خير اصبحوا معلقين وفلاسفة من الدرجة العاشرة ، ذلك كله في سبيل الاغراء المادي والثراء الاسطوري السريع . وهؤلاء كلهم يخدمون الحاضر بهمة ونشاط لا احد لهما ، ولكنهم يخونون المستقبل . ويكفي ان نراقب ارتباكهم عند حدوث اي تغير جذري في المجتمع ، فرى كيف يهاجمون - بحماس استشهادي وباسلوب الوائى الذي لا يناقش - افكارا كانوا يستمتتون في الدفاع عنها . وكثير ما تدور مناقشات ومحاورات متوترة عن تدني المستوى الثقافي وعن انحطاط نوعية الانتاج - وفرسان هذه المناقشات ينسون ان ذلك كله مسؤوليتهم - ، ويستحث كل الاخر ان يرفع مستواه وان يحسن انتاجه ، وتتخذ للهجوم بعض الوجوه الخالدة التي ليست بحاجة لمن يهاجمها ، ثم تكتشف حقائق رهيبه عجيبة ، ويختلط الحابل بالنابل والمهاجم مهجوم عليه ، والمهجوم عليه عذر ومرضى فسي القلب وكرافتا ثمينة و... وفي النهاية يتفق الجميع على رفع الاجر، وعلى زيادة المكافاة ، وعلى تقدير الجهود الرائعة . ويسود الصمت فترة يتخللها معارك جانبية فقهية بحثة حول هل يجوز نشر الافكار العميقة في الصحف او الجلات ، وايهما احق في النشر مقال عميق في تملق كاتب مسرحي رديء ام باب المجتمع وصفحة الوفيات ، وايهما اكثر جدوى وخطورة الحديث عن ملابس ومبازل الفنية فلانة ام نقل رأيها في ازمة الانتاج السينمائي . ثم يتوتر الجو ثانية ويحتدم صليل السيوف حول تدني المستوى والابتذال وانحطاط النوعية ، ثم تبحث الاجور والمكافئات وهلم جرا .

ان ذلك كله صحيح ، وشرح الداء كالداء نفسه اصبح مزمنا ومثيرا للاملال . ولكن ما هي الجذور العميقة للمشكلة ومن اين تنبع ؟ انها كما سبق ان قلنا تعود لكون المثقف قد اصبح يحقر نفسه وما الاقبال الشديد على المغام والمهم للمتع الذي لا ينتهي الا رد فعل انعكاسي نشأ لحماية الذات من تدمر نفسها . ان هذا النهج لا يمكن ارضائه باية وسيلة كانت ، لانها تعالج بالنمى المادي اعراض الداء ، والداء ذاته ما زال قائما لم يعالج بعد .

ان ظروفا موضوعية - عالية ومحلية - كما سبق ان اشرنا قد ادت الى تحطيم ثقة المثقف بنفسه وبالتقافة ذاتها . وعندما حاول المثقف ان يواجه هذه الظروف لجأ الى حيلة ساذجة وهي تحطيم نفسه كمثقف وانكار دور الثقافة في الحياة الانسانية . ونشأ عن هذا احساس عميق باحتقار الذات حاول المثقف ان يداريه بالاستيلاء على المنافع المادية وبالرغبة التافهة في اللعان والشهرة .

لقد رأيت مرة مشهدا ما زال عالقا في ذهني ، فقد شاهدت احد كبار النقاد وهو ممن شاركوا مشاركة كبيرة في حياتنا الثقافية واحدا ممن اضطهدوا على يد احدى حكومات الاقلية ، يتكلم بعصبية واسى عميق ان اسماعيل ياسين كان اعقل منه الف مرة فقد استطاع ان يبني ثلاث عمارات لا يستطيع كل المثقفين لو اجتمعوا ان يبنيوا واحدة منها . ومضى الناقد الكبير يلوم نفسه ويلوم ما سماه غياهه السابق عندما

ظن ان الاخلاص للثقافة اهم من كل شيء في الدنيا ، ويقول ايضا انه تعلم درساً لن ينساها ابدا .

ان هذا المثال يوضح المسألة الى ابعد حد ويكشف عن اعماقها . فالثقافة اخذت تصبح بالنسبة للمثقف وسيلة يبيعها وليست تمييزاً عن نفسه ، عن موقف انسان يود تغيير العالم . ان الثقافة تنفصل عنه لتصبح سلعة تخضع لقوانين العرض والطلب ، هنا يصبح الانتاج الثقافي متحدا بمزاج الاخرين ورغباتهم الابية ، لا بالاحتياجات العميقة للنفس الانسانية وللمجتمع في انتقاله الى المستقبل .

الا ان المثقف - على عكس منتج السلع - يبيع نفسه عندما يبيع ثقافته ، ويغير نفسه عندما يغير انتاجه الفني او الفلسفي . اذا ، فمن الضروري ، حتى نتخذ المثقف والثقافة ، وبالتالي الانسان ، ان نلقبى الاعتبار القائم على ان الثقافة عملية بيع وشراء .

لقد حاولت كثير من المجتمعات ان تطبق هذا المبدأ ويمكننا في هذا المجال ان نستفيد من انجازاتها ومن قصورها ايضا . ان التجارب التي تمت قد برهنت انه من الممكن تحويل التكنيك في مجال الثقافة لفائدة الثقافة ذاتها . كما برهنت على سخف الرأي القائل ان الجمهور الحديث لا يمكن ان يتقبل الافكار الجادة والعميقة الا من خلال الاجساد العارية واثارة الغرائز والاعتماد على خوف الانسان من المستقبل ، وعلى احلام اليقظة ، وفي توجيه مختلف الضغوط النفسية توجيهها مدعماً . الا انه من الملاحظ ان كل هذه التجارب لم تات بالنتائج المرجوة . وذلك ، في اعتقادي ، يعود الى سبب جوهرى . لقد اعتبر المثقف احد ادوات الدولة . فما يجب عليه ان يقوله قد قيل بواسطة الدولة ، فما عليه الا ان يردد رأيه . وبكلمة اخرى ان المثقف لم يمنح حرية التعبير عن نفسه ، بل ان ذلك كان يعرضه لكثير من الاحيان الى ان يقف موقفا لا يرضاه . اذ يصبح من السهل على الدولة ان تجعل منه عدوا للشعب وسببا لاختفاء وانحرافات لم يكن مسؤولاً عنها .

ولذا يصبح الشرط الاساسي لقيام المثقف بدوره هو منحه حرية التعبير عن نفسه . اما الادعاء بان ذلك معناه منحه حرية الخطأ فمسا يعبر الا عن احتقار للانسان وبأنه لا يمكن ان يسلك السبيل السوي الا بالعصا .

الخطوة الاخرى التي يجب ان تتخذ هي افساح المجال للجمهور والمثقف ان يتبادلا التفاعل وهذا سينعكس اثره على الاثنين . فمن الامور الشائعة التي تقال في اللقاءات الخاصة ان الجمهور يرغب في الثقافة الخفيفة الممتعة التي لا تكلفه اي مجهود ذهني ولا تثر فيسه اي احساس بالمسؤولية . ونحن اذا اكتفينا بملاحظة ما هو واقع وجدنا ان هذا صحيح الى حد بعيد . فيكفي ادخال قدر من الجادة والتفاهة في اقل الجلات شيوعاً حتى يكفل لها النجاح . ولكن كيف حدث ذلك ؟ هل ولد الفرد من هذا الجمهور وهو يصرخ مطالبا بالاغاني البتدلسة والافلام التافهة والروايات المراهقة ؟

لقد وجه الجمهور هذه الوجهة نتيجة لجهود اساندة التكنيك الصحفي والسينمائي الذين لم يحركهم قط حب هسذا الجمهور ولا احترامه ، وانما كان يحركهم رغبته المسعورة في الربح والاثراء وفي سبيل خدمة السادة الذين كانوا يدفعونهم ويدفعون لهم حتى يفسلوا هذا الجمهور وابعاد الوعي عنه . وهذا الموقف يشبه موقف من يقصر انسانا ، مستعملا كل وسائل التهديد والاغراء ، حتى يعمل خادما عنده ثم يدعي ان مثل هذا الانسان لا يصلح الا خادما .

ولذا فانه ليس من الضروري ان نيسر الثقافة العميقة الميسدة للجمهور وفي ان نهيء الجمهور لتقبل مثل هذه الثقافة وحسب ولكن من الضروري إعادة العلاقة المباشرة بين الجمهور والمثقف . كما انه من المحتم ان نعطي المثقف حرية التفاعل مع الثقافة العالمية بكل اتجاهاتها، ونبد الفكرة التعصبية الضيقة الافق التي ترى ان الثقافة المحلية هي عدوة لكل ما يأتي من الخارج . ان جميع القضايا اذا طرحت فسي اطارها الفلسفي الشامل تصبح ذات امتدادات عالية .

غالب هلسا

القاهرة